# غابة الصنوبر في بيروت

للاب لامنس اليسوعي

انَّ من يتجوَّل من السيَّاح الغربيين في اقطارنا لم يسعهم السكوت عن محاسن بيروت ولاسيَّما غابة صنوبرها الشهيرة التي جعلها البيروتيُّون مقصداً يرتادونهُ للنُّزهة وترويح النفس. غير انَّك لا تكاد تجد بينهم كاتباً الَّا وينسب هذه الغابة للامير الجليل فخر الدين الدرزيّ المعنيّ. وهذه بلا مشاحَّة من جملة الاغلاط العديدة التي طالما عهدناها في كتب اصحاب الرِّحَل والاسفار. ولا غروَ لانَّهم يطوون البلاد التي يزورونها بسرعة الطير المُجدّ في سيره فلا يسمح لهم قصر الوقت ان يتثبَّتوا الامور ويتحقَّقوها بذواتهم فيعدلون الى نقلها عمَّن سبقهم غثَّةً كانت ام سمينة

وقد أنعمنا النظر في كتب السيَّاح الأوَّلين لعلَّنا نقف على صاحب هذه الرواية الكاذبة ونستدلّ على سبب غلطه. فلم نجد احداً منهم يعزو غابة صنوبر بيروت الى الامير فخر الدين قبل الكاتب الفرنسيّ الشهير الفارس دي أرفيو (١ وكان المذكور متقلِّداً رتبة القنصل في صيدا. فزار بيروت سنة ١٦٦٠ وصنَّف تأليفاً حسناً اودعهُ أعجب ما حدث لهُ مدَّة اقامتهِ في المشرق. وقد ابدى في هذا التأليف من صحة الذوق ودقَّة النظر ما جعلهُ عبرةً لخلفهِ. بيد انَّهُ قد وهم كما نظنُّ بنسبتهِ غيضة بيروت للامير فخر الدين. وقد وافق الفارسَ دي ارفيو رحَّالةٌ انكليزي اسمهُ مندريل (٢ قدم بيروت سنة ١٦٩٧

وبعد هذين الكاتبين قد كرَّر هذا المزعم قومٌ لا يُحصون عدًّا مستندين اليهما او الى من اخذ عنهما. ودليل «بيديكر» الذي يتظاهر بالضبط وصحَّة الانتقاد قد نقل الرواية نفسها (٣. وما زادنا عجباً انَّ مؤلِّفاً حديثاً روى الامر ذاتهُ في كتابٍ افرنسيّ الحجة موضوعهُ جغرافية سوريَّة طُبع في بيروت. فهيَّا بنا نبحث عن صحَّة هذه الرواية

---

١) راجع كتابهُ المنون Mémoires du Chevalier d'Arvieux, II, 333

٢) Maundrell: *Voyage d'Alep à Jérusalem*, Utrecht, 1705

٣) راجع الطبعة الثالثة الالمانية Bædeker: *Reise in Palästina and Syrien*, 1897, 331 وفي هذا الدليل اغلاط أُخرى وردت في اثناء مقالهِ عن بيروت كقولهِ مثلاً (ص٣١٢) انَّ الاميركان حلُّوا ببيروت منذ سنة ١٧٢١ وهلمَّ جرًّا

(نقول) ان بعض العلماء قد ارتأوا انَّ اسم مدينة بيروت مشتقٌ من البرانية ברוית الذي يناسبهُ بالكلدانية وبالسريانية حوّاصا . ومعناهُ الأصلي السَّرو وربَّما دلَّ على الشربين والصنوبر . فان صحَّ هذا الاشتقاق تكون غابة بيروت قديمةً كنفس المدينة . ولا يخفى انَّ بيروت عريقة في القدم تُعدّ من اعتق مدن ساحل فينيقية كما بيَّنهُ الاب لويس شيخو في شروحهِ على تاريخ بيروت لصالح بن يحيى (راجع المشرق ص ٣٦)

ولعلَّ هذا البرهان لا يُرضي بعض القرَّاء لاختلاف آراء العلماء في اصل تسمية بيروت . فدونك شهاداتٍ أُخرى صريحة لا تدع مجالًا للريب في قدم هذه الغابة

فأوَّل هذه الادلَّة قد ورد في شعر نُنُّوس احد شعراء اليونان الذين اشتهروا في القرن الرابع للمسيح . فانَّ هذا الشاعر كتب ثماني واربعين قصيدةً وصف بها اخبار الاله بخُوس فدعاها لذلك القصائد الديونيسيَّة (Διονυσιακά) وديونيسوس اسم بخُوس باليونانية . ففي قصيدتهِ الثانية والاربعين قد كرَّر مرارًا ذكر غابة صنوبر بيروت وليس في قولهِ التباس(١

وقد بقيت هذه الغابة المذكورة بعد الشاعر نُنُّوس بزمن طويل فان الكاتب والجغرافي الشهير المعروف بالشريف الادريسيّ المتوفَّى سنة ٥٧٥ هـ (١١٨٠ م) قد وصف غابة بيروت في القرن الثاني عشر في كتابهِ المعنون بنزهة المشتاق في اخبار الآفاق فقال: «ولها (اي بيروت) غيضةٌ من اشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلًا في التكسير تتَّصل الى تحت لبنان»

وجاء في كتاب معاصره غِلْيلموس الصوريّ انَّ الصليبيين لمَّا حاولوا محاصرة مدينة بيروت عمدوا الى هذه الغابة فقطعوا منها الاخشاب اللازمة لتجهيز المجانيق وادوات الحرب

وروى صاحب تاريخ بيروت صالح بن يحيى (راجع المشرق ص ٢٧٦ و ٢٧٧) انَّ الامير الكبير يَلْبُغا العُمَري تقدَّم في سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٢ م) الى الامير بيدمر الخوارزميّ بالتوجُّه الى بيروت ليعمّر من غابتها مراكب كثيرة . وقد وصف المؤلف المذكور بناء هذه العمارة وما صرف عليها من المال الطائل

وقد رأى غابة بيروت بعد صالح بن يحيى احد الزوَّار الالمانيين سنة ١٤١١ وذكر انَّ سعتها كانت نحو ميلين (٢ . وذلك ممَّا يبيّن انَّ هذه الغابة كانت صغرت كثيرًا غير انَّها لم تزل معروفةً الى ذلك العهد

---

١) Nonnus, *ed. Firmin-Didot, trad. par le C. de Marcellus*, p. 350-353

٢) راجع المجلَّة الفلسطينيَّة ZDPV, XIV, 126

فكيف اذن يزعم المحدثون انَّ فخر الدين هو الذي زرع غابة صنوبر بيروت او جدَّد زرعها وفي ما سبق دلائل كافية على انَّها لم تزل مشهورة ثابتةً في مكانها المعروف. ولعلَّ السبب الذي حمل الكتبة على نسبة هذه الغابة للامير المذكور انَّهُ كان اتَّخذ بيروت كمقامهِ الخاصّ واهتمَّ بكلّ ما رآهُ مناسبًا لحضارتها وسعى بتحسينها وزينتها. وكان اسمهُ في ايَّام الفارس دي أرفيو شائعًا يلهج القوم بذكرهِ ولم يمرّ على وفاتهِ الَّا بضعة ثلاثين سنة. ولعلَّ البيروتيين نسبوا اليهِ غابتهم شكرًا لافضالهِ عليهم او لانَّهُ يكون سعى في صيانتها وتوسيعها. فروى الكاتب المنوَّه بهِ ما روى دون التدقيق في الخبر. وهنا يحسن بنا ان نختم كلامنا عن غابة بيروت بوصف نتها بهِ احد مشاهير الكتبة الفرنسيين منذ نحو ستين سنة وهو الشاعر لامرتين قال:

« ورأيتُ من هذه الغابة منظرًا يبهر النظر ويخلب اللبّ. فانَّ جذور شجرها تبلغ بين ستين وثمانين قدماً تلحق بالجوّ منتصبةً فتمدُّ من علٍ افنانها الباسقة وتظلّل بظلها الوارف ذلك السهل بسمتهِ. وترى بين الجذور فسحةً من الرمل الناعم تمرُّ في وسطهِ السابلة وتتجارى فيهِ خيل الرهان. وهناك تربة نديَّة تكسوها خضرة تزينها الانوار والزهور البهيَّة المنظر ... واذا ما استشفَّ الناظر وراء هذه العمد والسواري الطبيعية رأى عن بعد آكاماً من الرمل الاحمر او الابيض الذي يحول دون نظر البحر. ومن الجهة الاخرى يُرى على مدى البصر سهل بغداد (كذا. ومراد الكاتب سهل بعبدا) يجري فيهِ نهر بيروت المنتهي الى خور هو اشبه بحجيرة بديعة وكلُّ هذه المشاهد البهية يحفُّ بها في الافق بقاع مخصبة او يشرف عليها جبل لبنان ذر القسم البهية الشاهقة يزين منعطفهُ عددٌ وافر من القرى والضياع الجميلة المنظر. وترى مع ذلك الشمس نورًا ساطعًا يروق العين ويمكنها من رؤية أدقّ محاسن لبنان... فلعمر الحقّ انَّ هذه الغابة اجمل وابدع ما وقعت عليهِ ابصاري في حياتي جمعاء. »

(نقول) انَّ في هذا الوصف غلوًّا ظاهرًا بيد ان اهل بيروت يعذرون الشاعر لامرتين على اطنابهِ في غابتهم بل يشكرون فضلهُ على اطراء محاسن بلدتهم وترويج مفاخرها فحبَّبها لدى الاجانب ونشَّط في قلوبهم الرغبة في زيارتها